التحدي في آيات الإعجاز

د. قحطان عبد الرحمن الدوري
الأستاذ في جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المقدمة وخطة البحث

القرآن الكريم كلام الله تعالى ، لاريب فيه ، ومعجزة الرسول صلى الله عليه وسلم الخالدة . وإظهار المعجزة على يد النبي يفيد العلم بصدقه ، ويفيد تصديق الله تعالى له ، فكأنها كما قال إمام الحرمين بمنزلة أن يقول : جعلته رسولا[1]. وذلك لأن معجزة الأنبياء بخرقها العادة أعجزت المتحدين عن المعارضة ، مع كمالهم بما يناسب تلك المعجزة، وفرط اهتمامهم وتوفر دواعيهم ، ولهذا كانت معجزة كل نبي من جنس ما غلب على أهل زمانه وتفاخروا به .

فاشتهر قوم موسى بالسحر ، وعجزوا عن معارضة معجزة موسى عليه السلام في قلب العصا حية .

واشتهر قوم عيسى بالطب ، وعجزوا عن معارضة معجزة عيسى عليه السلام في إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص .

واشتهر العرب قوم محمد صلى الله عليه وسلم بالفصاحة والبلاغة، وعجزوا عن معارضة معجزته عليه الصلاة والسلام القرآن

---

1 – شرح المقاصد للتفتازاني ج2 ص179 .

الكريم[1].

وأثبت القرآن عجز البشر ، فتحداهم بأن يأتوا بمثله ، أو بسورة من مثله ، وتعذرت عليهم معارضته ، فكان المعجزة الخالدة .

وهذا البحث منصب على شرط الإعجاز الأول ، وهو التحدي الذي هو طلب المنازلة والمعارضة .

فبينت به حقيقة الإعجاز وشروطه ، وأن تحدي القرآن واقع، وأنواع التحدي في آيات الإعجاز : التحدي الظاهر وماذكره المفسرون فيها من معان والتفاتات جليلة ، والتحدي المشار إليه وآياته ثم بينت ترتيب آيات التحدي في النزول ، والخلاف بين المفسرين في تقدم سورة يونس على سورة هود ومؤداه ،

وأوضحت الاختلاف في اختصاص التحدي بعصر الرسالة أو هو قائم في كل زمان ، وتحديه الأعاجم ، ثم بينت انعدام المعارضة بعد التحدي وأدلته والتساؤلات في هذا المجال ، والمعارضات المنقولة من مسيلمة وابن المقفع وأضرابهما ، ثم أوضحت أن سبب إعراضهم عن المعارضة هو تعذرها عليهم ، ووثقت ماذكرت فيه بالمصادر الأصيلة المعتمدة في هذا الباب .

والله ولي التوفيق .

1 – كتابنا : أصول الدين الإسلامي ص 306 مشيرا إلى شرح المقاصد السابق وشرح المواقف وغيرهما .

الإعجاز وشروطه :

الإعجاز : إثبات العجز للغير . يقال : أعجز القرآن البشر ، أي أثبت عجزهم عن أن يأتوا بمثله .

ولا يتحقق الإعجاز إلا بأمور ثلاثة هي :

1 – التحدي ، وهو طلب المنازلة والمعارضة .

2 – وجود المقتضي الذي يدفع المتحدى إلى المنازلة .

3 – عدم وجود مانع من المباراة .

فالمصارع إذا ادعى البطولة ، وأنكر عليه مصارع آخر ، فتحداه الأول فلم يستطع الثاني منازلته ، كان الأول قد أثبت عجز الثاني ، وذلك : لوجود التحدي من الأول .

ولحرص الثاني على إبطال دعوى الأول .

ولانعدام المرض أو العذر المانع من المباراة .

تحقق شروط الإعجاز في القرآن الكريم :

ولبيان صحة إعجاز القرآن الكريم ، لابد أن نعرض كل شرط من شروط الإعجاز المتقدمة على القرآن ، ليتضح لنا إعجازه بجلاء ، وذلك على النحو الآتي :

1 – التحدي : فالقرآن الكريم تحدى العرب ، وطلب منازلتهم ومعارضتهم ، وأثبت عجزهم عن أن يأتوا بمثله – وهم أرباب الفصاحة والبيان شعرا ونثرا – كما نطقت به الآيات الكريمة ، والتي سنعرض لها تفصيلا بعونه تعالى .

2 – وجود المقتضي الذي يدفع المتحدى إلى المنازلة .

فالرسول صلى الله عليه وسلم ادعى أنه رسول الله ، وجاءهم

بكتاب الله (القرآن الكريم) ، يسفه عباداتهم ، ويسخر من عقولهم ، فحرصوا على رده بأن يأتوا بمثله أو ببعضه ، ليدحضوا حجته فلا يقال إنه من الله .

3 – عدم وجود مانع من المباراة .

فالمانع الذي يمنع العرب من المعارضة غير موجود ، وذلك متضح في جوانب عدة هي :

أ – جانب اللغة : فالعرب كانوا قادة الفصاحة والبيان ، ونزل القرآن الكريم بلسانهم .

ب – جانب المعنى : فقد كانوا ذوي بصر وخبرة وتجارب وذكاء ، كما تشير إلى ذلك خطبهم وأشعارهم ومنافراتهم وآثارهم .

جـ – جانب الزمن : فالقرآن لم ينزل جملة واحدة ، بل نزل خلال ثلاث وعشرين سنة ، ليتسع مجال المعارضة [1] .

والعرب يعلمون أن معارضة القرآن بنظم سورة مثله أبلغ في تكذيب محمد صلى الله عليه وسلم وأسرع في تفريق أتباعه، لكنهم عجزوا عن ذلك، مع أنهم مصاقع الخطباء وأساطين البلاغة في تلك الفترة الطويلة، فسلكوا سبيلا آخر، وهو بذل النفوس، والمقارعة بالسيوف، والخروج من الأوطان، وإنفاق الأموال بالحرب الضارية[2]

---

1 – كتابنا : أصول الدين الإسلامي ص 316 مشيرا إلى علم أصول الفقه لعبد الوهاب خلاف ص 25 – 27 ومحاضرات في أصول الفقه للشيخ بدر المتولي عبد الباسط ج1 ص129 .

2 – كتابنا : أصول الدين السابق مشيرا إلى : شرح المقاصد للتفتازاني ج 2 ص 183 والمواقف وشرحه ص 557 وشرح الدواني على العقائد العضدية ج 2 ص 278 وغيرها .

تحدي القرآن واقع ونوعا التحدي :

تحدى الرسول صلى الله عليه وسلم العرب بالقرآن ، فصار العلم بالتحدي ضروريا ، كالعلم بادعائه النبوة في الاشتهار .

ولم ينقل إنكار التحدي عن أحد من المتقدمين المخالفين للإسلام حتى ابن الراوندي الملحد ، مع طعنه بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم في كتابه الموسوم (العزيز) لم ينكر التحدي .

إلا أنه ورد بأخرة عن بعض الملحدين واليهود قولهم : إنه لم يحصل لنا العلم بأن النبي صلى الله عليه وسلم تحدى به .

وهذا قول لايلتفت إليه ، فقد ثبت عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه كان يقرأ القرآن على المسلم والكافر ، ولم يكتمه على أحد قريبا كان أو بعيدا .

والتحدي في القرآن نوعان ، ظاهر ومشار إليه ، وهو لا يدع مجالا للشبهة [1] .

النوع الأول : التحدي الظاهر

ورد التحدي الظاهر في مواضع ستة من القرآن :

1 – قوله تعالى (فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا لولا أوتي مثل ما أوتي موسى أو لم يكفروا بما أوتي موسى من قبل قالوا

---

1 – اثبات نبوة النبي صلى الله عليه وسلم لاحمد بن الحسين الهاروني ص 21 .
وذكر الباقلاني في اعجاز القرآن ص 18 : انه ثبت تحدي القرآن اليه ، وانهم لم يأتوا مثله ، بالنقل المتواتر الذي يقع به العلم الضروري ، فلا يمكن جحود واحد من هذين الأمرين .

سحران تظاهرا وقالوا إنا بكل كافرون . قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه إن كنتم صادقين . فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله إن الله لا يهدي القوم الظالمين) – القصص 48 – 50 .

فقوله (قل فاتوا بكتاب) أي : قل يامحمد إذ كفرتم يامعاشر المشركين بهذين الكتابين – التوراة والقرآن – فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه ليكون ذلك عذرا لكم في الكفر ، إن كنتم صادقين في أنهما سحران [1] .

ومثل هذا الشرط – أي : إن تأتوا به أتبعه – يأتي به من يدل بوضوح حجته ، لأن الإتيان بما هو أهدى من الكتابين أمر بين الاستحالة، فيوسع دائرة الكلام للتبكيت والإلزام [2].

وسبب نزولها : أن أهل مكة بعثوا رهطا منهم إلى رؤساء اليهود في عيد لهم ، فسألوهم عن شأنه عليه الصلاة والسلام ، فقالوا : إنا نجده في التوراة بنعته وصفته ، فلما رجع الرهط ، وأخبروهم بما قالت اليهود قالوا : ماأوتي محمد وموسى سحران تظاهرا وتعاونا بتصديق كل منها الآخر[3].

فكان قوله تعالى: (قل فاتوا بكتاب من عند الله) تحديا ظاهرا،

وكان قوله عز وجل : (فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنمايتبعون

---

1 – تفسير القرطبي ج 7 ص 5011 وفي تفسير الطبـــري نحوه ج 20 ص 86

2 – روح المعاني لأبي الثناء الآلوسي ج 20 ص 92 .

3 – روح المعاني السابق ص 91 .

أهواءهم) تحديا ثانيا ، لأنه قرعهم بترك الاستجابة إلى ذلك .

وقوله تعالى : (ومن أضل ممن اتبع هواه) تحديا ثالثا ، لأنه نسبهم إلى الضلال باتباعهم الهوى .

وقوله عز وجل : (إن الله لا يهدي القوم الظالمين) فيه معنى التحدي ، لأنه أخبر أن الله لا يهديهم [1] .

2 – قوله تعالى : (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا) – الإسراء88.

وسبب نزول الآية هو: ما أخرجه ابن إسحاق وابن جرير من طريق سعيد أو عكرمة عن ابن عباس ، قال أتى النبي صلى الله عليه وسلم سلام بن مشكم في عامة يهود سماهم ، فقالوا : كيف نتبعك وقد تركت قبلتنا ، وان هذا الذي جئت به لا نراه متناسقا كما تناسق التوراة ، فأنزل علينا كتابا نعرفه ، وإلا جئناك بمثل ما تأتي به ، فأنزل الله (قل لئن اجتمعت الإنس والجن..) الآية [2]

---

1 – اثبات نبوة النبي صلى الله عليه وسلم ص 24 .

2 – لباب النقول في اسباب النزول ، للسيوطي بهامش تفسير الجلالين ص 359 والرواية في تفسير ابن جرير الطبري ج 15 ص 158 – 159 بلفظ أطول من هذا. وذكرها بلفظ قريب السيوطي في الدر المنثور ج 4 ص 202 وقال: اخرجها ابن اسحاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عباس ، وذكر الشوكاني في فتح القدير ج 3 ص 259 ما جاء في الدر المنثور، والرواية في روح المعاني ج 15 ص 167

قال ابن كثير : وفي هذا نظر ، لأن هذه السورة مكية وسياقها كله مع قريش ، واليهود إنما اجتمعوا به في المدينة [1] .

لذلك فإن الرواية الأخرى في سبب النزول هي الراجحة ، وفيها: أن جماعة من قريش ، قالوا له صلى الله عليه وسلم: جئنا بآية غريبة غير هذا القرآن ، فإنا نحن نقدر على المجيء بمثله فنزلت .

ولعل مرادهم بهذه الآية الغريبة ماتضمنته الآيات بعد ، وهي قوله تعالى :(وقالوا لن نؤمن لك ... الخ) ، وحينئذ يمكن أن تكون هذه الآية مع الآيات الأخر رد جميع ما عنوه بهذا الكلام ، إلا أنه ابتدأ برد قولهم : نحن نقدر ...إلخ اهتماما به ، فإن قولهم ذلك منشأ طلبهم الآية الغريبة [2] .

وذكر القرطبي : أنها نزلت حين قال الكفار : (لو نشاء لقلنا مثل هذا) فأكذبهم الله تعالى [3] .

ذلك أن قوله تعالى : (وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين) – الأنفال 31 ، نزل في النضر بن الحارث ، كان خرج إلى الحيرة في التجارة ، فاشترى أحاديث كليلة ودمنة ، وكسرى وقيصر ، فلما قص رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبار من مضى ، قال النضر : لو شئت لقلت مثل

---

1 – تفسير ابن كثير ج 3 ص 62 .

2 – روح المعاني ج 15 ص 167 .

3 – تفسير القرطبي ج 6 ص 3943 .

هذا ، وكان هذا وقاحة وكذبا [1] .

والتحدي في آية الإسراء لم يكن شيء أبلغ منه [2] .

تحدي الإنس والجن :

لما علمنا بصحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، وأخبرنا عليه الصلاة والسلام بالجن وأحوالهم ، وأنهم كالإنس في تعذر المعارضة عليهم ، علمنا أن حالهم كحال العرب .

يبينه : أنه عليه الصلاة والسلام لو لم يخبرنا بالجن كنا لا نعلم إيمانهم أصلا ، ولولاه صلى الله عليه وسلم لقلنا إن معارضتهم غير متعذرة [3] ، لأنهم يأتون بأفعال يستغربها الإنسان ، وهذا سبيلنا في العلم بعجزهم كالإنس .

أما ما ذكره الباقلاني عن مخاطبة العرب الجن ، وتأمله كلام الغيلان ووصفها في شعر تأبط شرا وشمير بن الحارث وعبيد بن أيوب وذي الرمة وامرئ القيس ، وانتهى إلى أنه لا يزيد على فصاحة

---

1 – تفسير القرطبي ج 4 ص 2833 .

وورد في تفسير الطبرسي ج 6 ص 438: « في هذه الآية (قل لئن اجتمعت...) تكذيب للنضر بن الحارث حيث قال : لو نشاء لقلنا مثل هذا » .

2 – اثبات نبوة النبي صلى الله عليه وسلم ص 24 .

3 – المغني للقاضي عبد الجبار ج 16 ص 297 وورد في اعجاز القرآن للباقلاني ص 38 : (ان نظم القرآن وقع موقعا في البلاغة يخرج عن عادة كلام الجن، كما يخرج عن عادة كلام الانس ، فهم يعجزون عن الاتيان بمثله كعجزنا ويقصرون دونه كقصورنا وقد قال عز وجل : قل لئن اجتمعت الانس والجن ... الآية) .

العرب وأنهم يعجزون كعجز الإنس [1] ، فقد تعقب بأن الشاعر حين يحكي عن الجن ويروي عن لسان الغيلان فبلغته يتكلم ، فلا يصح الحكم به على مستوى كلام الجن والغيلان من جهة الفصاحة [2] .

ثم ان القاضي عبد الجبار ذكر : أنا نعتبر في كون القرآن ناقضا للعادات ، العادة المعروفة دون مالا نعرفه من العادات ، فإذا لم يمكن لنا في العقل طريق إلى معرفة الجن أصلا لأنهم لا يشاهدون ... فقد كفانا في معرفة كون القرآن معجزة خروجه عن عادة من تعرف عادته [3] ، وهذا يغني ، ويدفع كلام الباقلاني الآنف الذكر .

وسبب تخصيص الجن والإنس بالذكر في الآية: (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله...) – الإسراء 88 هو أن الذين أنكروا أنه من عند الله تعالى منهما ، لا من غيرهما ، والتحدي إنما كان معهما [4] ، ثم ان النبي صلى الله عليه وسلم بعث إليهما ، فوقع التعجيز للثقلين معا لذلك [5]

وقيل : المراد تعجيز الإنس ، وذكر الجن مبالغة في تعجيزهم ،

---

1 – اعجاز القرآن للباقلاني ص 39 – 41 .

2 – الاعجاز البياني – د. بنت الشاطيء ص 72 – 73 .

3 – المغني للقاضي عبد الجبار السابق .

4 – تفسير ابي السعود ج 5 ص 193 وروح المعاني ج 15 ص 166 .

5 – البحر المحيط ج 6 ص 77 .

لأنهم إذا عجزوا عن الإتيان بمثله ، ومعهم الجن القادرون على الأفعال المستغربة ، كما حكى الله تعالى عنهم في قصة سليمان عليه السلام ، فهم عن الإتيان بمثله وحدهم أعجز [1]، قال الألوسي: وليس بذاك [2] .

وتساءل الرازي فقال :

لقائل أن يقول : هب أنه قد ظهر عجز الإنسان عن معارضته، فكيف عرفتم عجز الجن عن معارضته ؟ وأيضا : فلم لا يجوز أن يقال : إن هذا الكلام نظم الجن ألقوه على محمد صلى الله عليه وسلم ، وخصوه به على سبيل السعي في إضلال الخلق ، فعلى هذا إنما تعرفون صدق محمد صلى الله عليه وسلم إذا عرفتم أن محمدا صادق في قوله : أنه ليس من كلام الجن ، بل هو من كلام الله تعالى ، فحينئذ يلزم الدور .

وليس لأحد أن يقول : كيف يعقل أن يكون هذا من قول الجن ؟ لأنا نقول: إن هذه الآية دلت على وقوع التحدي مع الجن ، وإنما يحسن هذا التحدي لو كانوا فصحاء بلغاء ، ومتى كان الأمر كذلك كان الاحتمال المذكور قائما .

أجاب العلماء عن الأول : بأن عجز البشر عن معارضته يكفي في إثبات كونه معجزا .

وعن الثاني : أن ذلك لو وقع لوجب في حكمة الله أن يظهر ذلك التلبيس ، وحيث لم يظهر ذلك دل على عدمه .

---

1 – روح المعاني والبحر المحيط السابقان .

2 – روح المعاني السابق .

وعلى أنه تعالى قد أجاب عن هذا السؤال بالأجوبة الشافية الكافية في آخر سورة الشعراء في قوله : (هل أنبئكم على من تنزل الشياطين ، تنزل على كل أفاك أثيم) – 221 ... إلخ [1].

3 – قوله تعالى (وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين . أم يقولون افتراه قل فاتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين) – يونس 37 – 38 .

فالآية تفيد أن الأمر إن كان كما تزعمون من أن محمدا افتراه، فاتوا أنتم على جهة الافتراء بسورة مثله في البلاغة والفصاحة والنظم وجزالة المعنى، فإنكم مثله في العربية والفصاحة وأشد تمرنا واعتيادا في النظم والنثر ، وادعوا للمعاونة من استطعتم دعاءه والاستعانة به من آلهتكم التي تزعمون أنها ممدة لكم في الملمات ، ومن المداره الذين تلجؤون إليهم في كل ما تأتون وتذرون ، وهذا تبكيت لهم وإظهار لبطلان مقالاتهم الفاسدة [2] .

وقوله : (وماكان هذا القرآن أن يفترى ...) تحد ظاهر ، فلا يأتي به أحد إلا من عند الله .

وقوله : (فاتوا بسورة مثله) تحد ظاهر ثان .

---

1 – تفسير الرازي ج 21 ص 54 – 55 وتفسير النيسابوري ج 15 ص 79 .

2 – روح المعاني ج 11 ص 118 – 119 وتفسير فتح القدير للشوكاني ج 2 ص 446 . وانظر : تفسير ابي السعود ج 4 ص 146 وتفسير الطبرسي ج 5 ص 110 وتفسير البيضاوي بحاشية الكازروني ج 3 ص 93 والكشاف للزمخشري ج 2 ص 75 .

وقوله : (وادعوا من استطعتم ...) تحد ثالث [1] .

4 – قوله تعالى : (أم يقولون افتراه قل فاتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين . فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون) – هود 13 – 14 .

أوضحت الآية أنهم لما قالوا : افترى محمد القرآن واختلقه من عند نفسه ، وليس من عند الله ، ارخ لهم يامحمد العنان ، وقل لهم : هبوا أني اختلقته من عند نفسي ، ولم يوح إلي ، وأن الأمر كما قلتم ، فأتوا أنتم بعشر سور مثله في البلاغة وحسن النظم مختلقة من عند أنفسكم ، فأنتم عرب فصحاء مثلي بلغاء ، مارستم الخطب و الشعر ، وزاولتم النظم والنثر ، وحفظتم الوقائع والأيام [2]، وادعوا من استطعتم من دون الله من الكهنة والأعوان [3] .

فإن لم يستجيبوا لكم بإتيان ما دعوتم إليه – وجمع الضمير إما لتعظيم الرسول صلى الله عليه وسلم ، أو لأن المؤمنين كانوا يتحدونهم أيضا [4] – ولم تتهيأ لهم المعارضة ، فقد قامت عليهم

---

1 – اثبات نبوة النبي صلى الله عليه وسلم ص 23 .

2 – الكشاف ج 2 ص 92 وروح المعاني ج 12 ص 20 . وانظر تفسير الطبـــري ج 12 ص 9

3 – تفسير القرطبي ج 5 ص 3240 .

4 – تفسير البيضاوي ج 3 ص 105

الحجة [1] .

وقوله تعالى : (فاتوا بعشر سور ...) تحد ظاهر وتقريع بالغ ، والله عز وجل فسح لهم في المعارضة ، ووسع عليهم في التحدي في الاتيان بذلك . و الإتيان بالشيء : جلبه ، سواء كان بالاسترفاد من الغير ، أم بالإختراع من الجالب [2] .

وقوله تعالى : (وادعوا من استطعتم من دون الله) تحد ثان ، لأنه إخبار عن أن أحدا من دون الله لا يأتي بمثله .

وقوله تعالى : (فإن لم يستجيبوا لكم ...) تحد ثالث ، لأن جعل حجته في أنه أنزل بعلم الله تركهم الاستجابة إلى إتيان عشر سور مثله.

وقوله تعالى : (فهل أنتم مسلمون) يتضمن معنى التحدي ، لأنه دعاهم إلى الإسلام لظهور عجزهم [3] .

5 – قوله تعالى : (أم يقولون تقوله بل لا يؤمنون . فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين) – الطور 33 – 34 .

فهم يقولون : إن محمدا صلى الله عليه وسلم تقوله – أي : اختلق القرآن من تلقاء نفسه – ، فلم يؤمنوا لكفرهم وعنادهم ، فإن كانوا صادقين في أن محمدا افتراه فليأتوا بحديث مماثل للقرآن من حيث النظم والمعنى ، مع مابهم من طول الممارسة للخطب والأشعار،

---

1 – تفسير القرطبي ج 5 ص 3241

2 – تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور ج 12 ص 19 .

3 – اثبات نبوة النبي صلى الله عليه وسلم ص 23 .

وكثرة المزاولة لأساليب النظم والنثر ، والمبالغة في حفظ الوقائع والأيام .

فإذا تحدوا وعجزوا علم رد ماقالوه وصحة المدعى [1]

وقوله تعالى : (فلياتوا بحديث مثله) تحد ظاهر .

6 – قوله تعالى : (وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين . فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس و الحجارة أعدت للكافرين) – البقرة 23 – 24 .

– الخطاب في الآية (وإن كنتم) للكفار ، وهو المروي عن الحسن وقيل لليهود ، لأن سبب النزول كما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنهم قالوا : هذا الذي يأتينا به محمد صلى الله عليه وسلم لا يشبه الوحي ، وإنا لفي شك منه .

وقيل هو على نحو الخطاب في (اعبدوا) [2] .

– والريب : الشك ، وليس معنى كونهم في ريب منه ارتيابهم في استقامة معانيه وصحة أحكامه ، بل في نفس كونه وحيا منزلا من عند الله عز وجل [3] .

---

1 – تفسير ابي السعود ج 8 ص 151 وروح المعاني ج 27 ص 37 وانظر : تفسير القرطبي ج 9 ص 6243 ، وتفسير الطبري ج 27 ص 33 .

2 – روح المعاني ج 1 ص 192 وانظر تفسير القرطبي ج 1 ص 199 .

3 – تفسير ابي السعود ج 1 ص 63 – 64 .

– و(نزلنا) على لفظ التنزيل دون الإنزال ، لأن المراد النزول على سبيل التدريج والتنجيم ، وهو من محازه لمكان التحدي ، وذلك أنهم كانوا يقولون : لو كان هذا من عند الله لم ينزل هكذا نجوما سورة بعد سورة ، على حسب النوازل ، وعلى سنن مانرى عليه أهل الخطابة والشعر ، حسب ما يعن لهم من الأحوال المتجددة ، لا يلقي الناظم ديوان شعره دفعة ، ولا يرمي الناثر بمجموع خطبه أو رسائله ضربة ، فلو أنزله الله لأنزله خلاف هذه العادة جملة واحدة ، قال تعالى : (وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة) – الفرقان 32 ،

فقيل لهم : إن ارتبتم في هذا الذي أنزل على مهل وتدريج فهاتوا أنتم نوبة واحدة من نوبه ، وهلموا نجما من نجومه ، سورة من أصغر السور ، وآيات شتى مفتريات ، وهذه غاية التبكيت ومنتهى إزالة العلل [1] .

– (على عبدنا) : أضاف العبد إلى نفسه تعالى تشريفا وتنويها بذكره ، وتنبيها على أنه مختص به منقاد لحكمه تعالى [2] .

– وفي الهاء في (مثله) أقوال :

---

1 – الكشاف ج 1 ص 184 ونحوه في تفسير النيسابوري ج 1 ص 204 وابي السعود ج 1 ص 64 والرازي ج 2 ص 116 والبيضاوي والكازروني عليه ج 1 ص 112 وفي التحرير والتنوير ج 1 ص 336 أشار إلى قول صاحب الكشاف ولأبي حيان الاندلسي في البحر المحيط ج1 ص 103 تعقيب عليه ، ليس هذا موضع بسطه .

2 – تفسير ابي السعود السابق .

1 - تعود على (مانزلنا) ، فيكون (من مثله) صفة لسورة ، ويتعلق بمحذوف ، أي بسورة كائنة من مثل المنزل في فصاحته وإخباره بالغيوب وغير ذلك .

ويكون معنى (من) التبعيض ، واختار ابن عطية والمهدوي أن تكون للبيان ، وأجاز أبو البقاء أن تكون زائدة على قول الأخفش (1)

وعودة الهاء في (مثله) على القرآن هو قول الجمهور من العلماء كمجاهد وقتادة (2) ، واختاره الطبري والزمخشري والرازي ونقله عن عمر وابن مسعود وابن عباس والحسن البصري وأكثر المحققين (3) وصححه ابن كثير وغيره (4)، و قال الألوسي : هو أولى الوجوه على الإطلاق (5) ، لما يأتي :

---

1 - الفتوحات الالهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية للجمل ج 1 ص 28 عن السمين. وتفصيل هذه الاوجه في تفسير ابي السعود ج 1 ص 64 وروح المعاني السابق .

2 - تفسير القرطبي ج 1 ص 200 وفي تفسير الثعالبي ج 1 ص 38 : الجمهور

3 - تفسير ابن كثير ج 1 59 وصححه الطبري في تفسيره ج 1 ص 165 وهو الأوجه في الكشاف ج 1 ص 187 وهو الراجح في تفسير الرازي ج 2 ص 118 وهو الأوجه في البيضاوي ج 1 ص 113 وفتح القدير للشوكاني ج 1 ص 52 ونقله عن جمهور أهل العلم ، وذكر قولين آخرين بلفظ قيل مما يشعر بتضعيفه لهما وترجيحه الأول. وتفسير النيسابوري وفيه : هو الاوجه ج 1 ص 205 وابي السعود ج 1 ص 64 .

4 - تفسير ابن كثير والهامش السابق .

5 - قال الالوسي في روح المعاني ج 1 ص 195 بعد كلام طويل بهذا الشأن: =

أ – لأنه الموافق لنظائره من آيات التحدي ، كقوله تعالى : (فاتوا بسورة مثله) ، لأن المماثلة فيها صفة للمأتي به .

ب – لأن الكلام في المنزل لا المنزل عليه ، وذكره إنما وقع تبعا، ولوعاد الضمير إليه ترك التصريح بمماثلة السورة ، وهو عمدة التحدي ، وإن فهم .

جـ – لأن أمر الجم الغفير – لأن يأتوا من مثل ماأتى به واحد من جنسهم– أبلغ من أمرهم بأن يجدوا أحدا يأتي بمثل ما أتى به رجل آخر.

د – لأنه لو رجع الضمير للعبد لأوهم أن إعجازه لكونه ممن لم يدرس ولم يكتب ، لا أنه في نفسه معجز ، مع أن الواقع هذا [1] .

2 – تعود الهاء إلى (عبدنا) فيتعلق (من مثله) بائتوا . ويكون معنى (من) ابتداء الغاية . ويجوز على هذا الوجه أن تكون صفة لسورة ، أي بسورة كائنة من رجل مثل عبدنا [2] .

ورجح بعضهم عودة الهاء على العبد صلى الله عليه وسلم ،

= (ثم أولى الوجوه هنا على الاطلاق جعل الظرف (من مثله) صفة للسورة ، والضمير للمنزل ، ومن بيانية ..).

1 – روح المعاني السابق ، وانظر تفسير ابن كثير السابق .

2 – الفتوحات الالهية ج 1 ص 28 عن السمين ، وانظره في تفسير ابي السعود ج 1 ص 64 وروح المعاني السابق ، وانظر القول في تفسير ابن كثير السابق والقرطبي ج 1 ص 200 والطبري ج 1 ص 166 وفتح القدير للشوكاني ج 1 ص 52 والبيضاوي ج 1 ص 112 .

لاشتماله على معنى مستبدع ، ولأن الكلام مسوق للمنزل عليه ، إذ التوحيد والتصديق بالنبوة توأمان ،فالمقصود إثبات النبوة ... والتحدي على ذلك أبلغ ، لأن المعنى اجتمعوا كلكم ، وانظروا هل يتيسر لكم الاتيان بسورة ممن لم يمارس الكتب ولم يدارس العلوم(1) .

3 – تعود الهاء على التوراة والإنجيل ، والمعنى : فاتوا بسورة من كتاب مثله ، فانها تصدق مافيه (2) .

4 – قال أبو البقاء : تعود الهاء على الانداد بلفظ المفرد ، كقوله: (وإن لكم في الأنعام لعبرة نسقيكم مما في بطونه) – النحل66 .

وردّ : بأنه لا حاجة تدعو إلى ذلك ، والمعنى يأباه أيضا (3) .

التحدي بأن ياتوا بمثله :

لو قيل ، كيف تحداهم القرآن بمثله ولا مثل له ؟

أجيب بوجهين ، أحدهما : كقولهم : أساطير الأولين ، وانه شعر .

والوجه الآخر : انه تحداهم بمثل العبارة عن كلام الله ، وان

---

1 – روح المعاني ج 1 ص 195 ولم يرتضه الالوسي .

2 – تفسير القرطبي ج 1 ص 200 .

3 – الفتوحات الالهية ج 1 ص 28 عن السمين .

يأتوا مبتدئين غير محتذين ، وهم على ذلك غير قادرين [1] .

وقال الطبري : قوله تعالى (بسورة من مثله) لم يعن به : ائتوا بسورة من مثله في التأليف والمعاني التي باين بها سائر الكلام غيره ، وانما عنى : ائتوا بسورة من مثله في البيان ، لأن القرآن أنزله الله تعالى بلسان عربي ، فكلام العرب لاشك له مثل في معنى العربية . فأما في المعنى الذي باين به القرآن سائر كلام المخلوقين ، فلا مثل له من ذلك الوجه ولا نظير ولا شبيه .

وانما احتج الله تعالى عليهم لنبيه صلى الله عليه وسلم بما احتج له عليهم من القرآن ، إذ ظهر عجز القوم عن أن يأتوا بسورة من مثله في البيان ، إذ كان القرآن بيانا مثل بيانهم .

فقال لهم تعالى : وان كنتم في ريب من أن ما أنزلت على عبدي من القرآن من عندي فأتوا بسورة من كلامكم الذي هو مثله في العربية ، إذ كنتم عربا ، وهو بيان نظير بيانكم ، فلم يكلفهم جل ثناؤه أن يأتوا بسورة من غير اللسان الذي هو نظير اللسان الذي نزل به القرآن ، فيقولوا : كلفتنا ما لو احسناه اتينا به ، فانا لا نقدر على الاتيان به ، فليس لك علينا حجة بهذا ، لأنا وان عجزنا عن أن نأتي بمثله من غير السنتنا ، لأنا لسنا بأهله ، ففي الناس خلق كثير من غير أهل لساننا يقدر على أن يأتي بمثله .

ولكنه تعالى قال لهم : (فأتوا بسورة من مثله) لأن مثله من الألسن ألسنتكم ، وانتم إذا اجتمعتم وتظاهرتم على الاتيان بمثل سورة منه أقدر على اختلاقه من محمد صلى الله عليه وسلم وهو

1 - نكت الانتصار للباقلاني ص 246 .

وحده ، ان كنتم صادقين في زعمكم ان محمدا افتراه وانه من عند غيري [1] .

– (وادعوا شهداءكم من دون الله) : من : لابتداء الغاية متعلقة بادعوا، ودون : تستعمل بمعنى التجاوز في محل النصب على الحال .

والمعنى: ادعوا إلى المعارضة من يحضركم ، أو من ينصركم بزعمكم [2] من دون الله أي : من دون أوليائه ، يعني : فصحاء العرب ووجوه المشاهد ليشهدوا لكم أن ما أتيتم به مثله ، فإن العاقل لا يرضى لنفسه أن يشهد بصحة ما اتضح فساده وبان اختلاله [3]

والأمر للتعجيز والارشاد ، والمقصود به : ارخاء العنان والاستدراج إلى غاية التبكيت ، كأنه قيل : تركنا الزامكم بشهداء الحق إلى شهدائكم المعروفين بالذب عنكم ، فانهم أيضا لا يشهدون لكم حذارا من اللائمة وأنفة من الشهادة الباطلة . كيف لا وأمر الاعجاز قد بلغ من الظهور إلى حيث لم يبق إلى انكاره سبيل [4] ؟

– (إن كنتم صادقين) بزعمكم في أنه كلام البشر ، أو في أنكم تقدرون على معارضته فاتوا وادعوا . [5]

---

1 – تفسير الطبري ج 1 ص 166 .

2 – روح المعاني ج1 ص 196 . وانظر التحرير و التنوير ج1 ص 340 .

3 – تفسير البيضاوي ج 1 ص 114 .

4 – روح المعاني السابق .

5 – روح المعاني السابق ص 197 .

وقوله تعالى : (فاتوا بسورة من مثله) تحد ظاهر .

وقوله تعالى : (وادعوا شهداءكم ...) تحد ثان .

وقوله تعالى : (فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا) تحد ثالث ، مع انه خبر عن المستقبل ، ومثله لا يجوز ان يقع من العاقل إذ لا يأمن ان يفعلوا ذلك فيظهر كذبه ، فدل على أنه كان من عند علام الغيوب [1].

النوع الثاني : التحدي المشار إليه :

في القرآن الكريم مواضع عديدة تضمنت معنى التحدي ، وان لم ترد بلفظ التحدي ، منها :

1 – قوله تعالى : (أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم) – العنكبوت 51 .

2 – قوله تعالى : (ألر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير) – هود 1 .

3 – قوله تعالى : (ألر كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور) – ابراهيم 1 .

4 – قوله تعالى : (لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله) – الحشر 21 .

ونظائرها كثير ، وهي تحرك الطبع ، وتقوي الداعي إلى المعارضة [2] .

---

1 – اثبات نبوة النبي صلى الله عليه وسلم ص 22 .

2 – اثبات نبوة النبي صلى الله عليه وسلم ص25 .

ترتيب آيات التحدي في النزول :

أول ما نزل من آيات التحدي في القرآن الكريم – على ما عده الزركشي في البرهان وذكر أنه عليه استقرت الرواية من الثقات [1]– هي الآية 49 من سورة القصص : (قل فاتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه) ، وسورة القصص مكية [2] وهي السورة الثامنة والأربعون في ترتيب النزول كما في البرهان ، والتاسعة والأربعون عند ابن الضريس [3] .

ثم نزلت سورة الاسراء المكية [4] بعد سورة القصص مباشرة، وفيها آية التحدي : (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن ...) – الآية 88 .

---

1 – البرهان للزركشي ج 1 ص 193 وانظر الاتقان للسيوطي ج 1 ص 27 .

2 – نزلت سورة القصص بمكة – اخرجه النحاس وابن الضريس وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس ، واخرجه ابن مردويه عن عبد الله بن الزبير/ الدر المنثور للسيوطي ج 5 ص 119 وجاء في تفسير الجلالين بهامش الفتوحات الالهية ج 3 ص 333 : سورة القصص مكية إلا آية (ان الذي فرض عليك) نزلت بالجحفة – وهو موضع بين مكة والمدينة – وإلا : (الذين آتيناهم الكتاب ... لا نبتغي الجاهلين) .

3 – رواية ابن الضريس عن ابن عباس في الاتقان ج 1 ص 27 .

4 – اخرج النحاس وابن مردويه عن ابن عباس قال : نزلت سورة بني اسرائيل مكة/ الدرالمنثور ج 4ص 136، وجاء في الجلالين بهامش الفتوحات الالهية ج 2 ص 608 : الاسراء مكية ، إلا (وان كادوا ليفتنونك – الآيات الثمان) .

ونزلت بعدها مباشرة سورة يونس المكية (1) ، وفيها آية التحدي: (قل فاتوا بسورة مثله) - الآية 38 .

ونزلت بعدها مباشرة سورة هود المكية (2) ، وفيها الآية : (قل فاتوا بعشر سور مثله مفتريات) - الآية 13.

وبعد فترة نزلت سورة الطور المكية [3] ، وترتيبها الخامسة والسبعون في النزول على ما ذكره الزركشي في البرهان ،

---

1 - نزلت سورة يونس بمكة - اخرجه النحاس وابو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس، واخرجه ابن مردويه عن عبد الله بن الزبير/ الدر المنثور ج3 ص 299 . وورد في الفتوحات الالهية للجمل ج 2 ص 332 عن الخازن : سورة يونس نزلت بمكة الا ثلاث آيات وهي : (فان كنت في شك مما انزلنا إليك ...إلى آخر الثلاث) قاله ابن عباس وبه قال قتادة ... إلخ . وفي الاتقان ج 1 ص 31 : المشهور انها مكية وعن ابن عباس روايتان ... الثانية انها مدنية

2 - نزلت سورة هود بمكة - أخرجه النحاس في تاريخه وأبو الشيخ وابن مردويه من طرق عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وأخرجه ابن مردويه عن عبد الله بن الزبير/ الدر المنثور ج3 ص 319، وجاء في الفتوحات الإلهيةج2 ص378 عن الخازن: سورة هود مكية في قول ابن عباس وبه قال الحسن وعكرمة ومجاهد وابن زيد وقتادة ، وفي رواية عن ابن عباس: أنها مكية غير آية (وأقم الصلاة ...) وعن قتادة نحوه ، وقال مقاتل : هي مكية إلا آية (فلعلك تارك ...)

وقوله : (أولئك يؤمنون به ...) وقوله (إن الحسنات ...) .

3 - نزلت سورة الطور بمكة - أخرجه ابن الضريس وابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس وأخرجه ابن مردويه عن ابن الزبير / الدر المنثور ج 6 ص 116 .

والسادسة والسبعون في النزول على ما ذكره ابن الضريس [1] ، وفيها آية التحدي: (فليأتوا بحديث مثله) – الآية 34 .

وبهذا يتبين أن آيات التحدي في هذه السور الخمس كلها مكية بالإجماع . ثم كانت أول سورة بالمدينة وهي سورة البقرة [2] ، وردت فيها آخر آيات التحدي الصريح وهي : (فاتوا بسورة من مثله – الآية 23 .

وقد اتفق العلماء على ترتيب نزول آيات التحدي المذكورة على النحو المتقدم .

إلا أنه ورد عن المفسرين اختلاف في تقدم سورة يونس في النزول ، وفيها: (فاتوا بسورة مثله) ، على سورة هود وفيها : (فاتوا بعشر سور مثله) على قولين :

القول الأول :

التحدي بعشر سور وقع أولا ، فلما عجزوا تحداهم بسورة من مثله، كما في سورة يونس والبقرة . وقال به الكثير [3] .

---

1 – البرهان للزركشي ج1ص193، وقول ابن الضريس في الإتقان جـ1ص27

2 – أخرج أبو داود في الناسخ والمنسوخ عن عكرمة قال : أول سورة نزلت بالمدينة سورة البقرة / الدر المنثور جـ 1 ص 17 .

3 – روح المعاني جـ 12 ص 20 . وانظر هذا القول في :
تفسير الكشاف جـ 2 ص 92 وتفسير البيضاوي جـ 3 ص 104، وتفسير الرازي جـ2 ص117 وجـ 17 ص 97 وص 195 ، وتفسير النيسابوري ح 12 ص 12 والبحر المحيط لابن حيان ج 5 ص 158 عن الرازي و 208 وتفسير ابن كثير ج 2 ص 417 والفتوحات الالهية للجمل ج 2=

فالله تعالى تحداهم أولا بأن يأتوا بنظير ما جاء به ، ثم تقاصر معهم إلى عشر سور ، ثم تنازل إلى سورة من مثله ، متنزلا معهم إلى الأخف فالأخف ، تهكما بهم ، واظهارا لعجزهم [1] .

وهذا كمن يتحدى صاحبه بتصنيفه ، فيقول : ائتني بمثله ، ائتني بنصفه ، ائتني بربعه ، ائتني بمسألة منه ، وهذا هو النهاية في التحدي وازالة العذر . [2]

ولا يجوز العكس ، إذ لا معنى للتحدي بعشر لمن عجز عن التحدي بواحدة [3] .

= ص 350 و 384 وتفسير التحرير والتنوير ج 12 ص 20 وهو المعتمد ، وج 1 ص 337 واعجاز القرآن للرافعي ص 218 .

1 – في النبأ العظيم ص 84 : (لم يسد عليهم باب المعارضة بل فتحه على مصراعيه ... فدعاهم أول مرة أن يجيئوا بمثله ، ثم دعاهم أن يأتوا بعشر سور مثله ، ثم أن يأتوا بسورة واحدة مثله ، ثم بسورة واحدة من مثله . وعلق في الهامش بقوله : انظر كيف تنزل معهم في هذه المرتبة من طلب التماثل إلى طلب شيء مما يماثل ، كأنه يقول : لا أكلفكم بالمماثلة العامة ، بل حسبكم أن تأتوا بشيء فيه جنس المماثلة ومطلقها ، وبما يكون مثلا على التقريب لا التحديد وهذا أقصى ما يمكن من التنزل ، ولذا كان هو آخر صيغ التحدي نزولا ، فلم يجيء التحدي بلفظ (من مثل) الا في سورة البقرة المدنية ، وسائرالمراتب بلفظ (مثله) في السور المكية ، فتأمل هذا الفرق فإنه طريف) .

2 – تفسير الرازي ج2 ص 117 ، وانظر الكشاف والنيسابوري السابقين .

3 – روح المعاني السابق وتفسير الرازي ج 17 ص 195 .

فمقتضى التحدي بعشر أن يكون قبل طلب المعارضة بسورة[1] .

القول الثاني :

التحدي بسورة وقع قبل التحدي بعشر سور .

وهو الذي استقرت عليه الرواية من الثقات كما يقول الزركشي[2]، ورواه ابن الضريس في فضائل القرآن عن ابن عباس[3] وهو قول ابن عطية [4] وروي عن المبرد الذي انكر تقدم نزول سورة هود على نزول سورة يونس ، وقال: بل نزلت سورة يونس أولا ثم نزلت سورة هود [5]. وذكره آخرون [6] .

ووجهه :

ان ما وقع أولا هو التحدي بسورة مثله في البلاغة أو الاشتمال على أخبار المغيبات والأحكام واخواتها ، فلما عجزوا عن ذلك أمرهم

---

1 – تفسير البحر المحيط ج 5 ص 208

2 – البرهان ج 1 ص 193 .

3 – الاتقان للسيوطي ج 1 ص 27 .

4 – البحر المحيط ج 5 ص 208 وروح المعاني ج 12 ص 20

5 – روح المعاني السابق ، وأشار إلى قول ابن الضريس في فضائل القرآن عن ابن عباس .

6 – روح المعاني ج 12 ص21 عن الشهاب الذي ذكر انه الحق ، وذكر ابن عاشور رأي المبرد ، وقال : ليس بالقوي ، في التحرير والتنوير ج 12 ص 20 ونصره رشيد رضا في تفسير المنار ج 12 ص 38 وسيد قطب في ظلال القرآن ج 4 ص 523 .

بأن يأتوا بعشر سور مثله في النظم ، وان لم تشتمل على ما اشتمل عليه [1] .

والتحدي وقع في هذه الآية بعشر ، لأنه قيدها بالافتراء ، فوسع عليهم في القدر ، لتقوم الحجة غاية القيام ، إذ قد أعجزهم في غير هذه الآية بسورة مثله دون تقييد ، فهي مماثلة تامة في غيوب القرآن ونظمه ووعده ووعيده ، وعجزوا في هذه الآية بأن قيل لهم عارضوا القدر منه بعشر أمثاله في التقدير ، والغرض واحد ، واجعلوه مفترى لا يبقى لكم إلا نظمه ، فهذه غاية التوسعة .

وليس المعنى عارضوا عشر سور بعشر ، لأن هذه انما تجيء معارضة سورة بسورة مفتراة ، ولا يبالي عن تقديم نزول هذه على هذه [2] .

ويؤيد هذا النظر :

أن التكليف في آية البقرة إنما هو بسبب الريب ، ولا يزيل الريب إلا العلم بأنهم لا يقدرون على المماثلة التامة ، وفي هذه الآية انما التكليف بسبب قولهم افتراه ، وكلفوا نحو ما قالوا ، ولا يطرد هذا في آية يونس [3] .

وتعقبه الآلوسي بقوله : وفيه : ان الأمر في سورة يونس كالأمر هنا مسبوق بحكاية زعمهم الافتراء ، مع أنهم لم يكلفوا إلا

1 – روح المعاني السابق .

2 – البحر المحيط ج5 ص 208 نقلا عن ابن عطية .

3 – البحر المحيط السابق و روح المعاني جـ 12 ص 21 .

بنحـــــو ما كلفوا بـه في آية البقرة ، على أن في قوله : ولا يزيل الريب ... منعا ظاهرا [1].

وضعف القول في الكشف وقال : انه لا يطرد في كل سورة من سور القرآن الكريم . وهب أن السورة متقدمة النزول إلا انها لما نزلت على التدريج جاز أن تتأخر تلك الآية عن هذه ، ولا ينافي تقدم السورة على السورة .

وتعقبه الشهاب :

بأن قوله (لا يطرد) مما لا وجه له ، لأن مراد المبرد اشتماله على شيء من الأنواع السبعة ، ولا يخلو شيء من القرآن عنها ، وادعاء تأخر نزول تلك الآية خلاف الظاهر ، ومثله لا يقال بالرأي ، وادعى أن الحق ما قاله المبرد ، من أنه عليه الصلاة والسلام تحداهم أولا بسورة من مثله في النظم والمعنى ، ثم تنزل فتحداهم بعشر سور مثله في النظم من غير حجر في المعنى ، ويشهد له توصيفها بمفتريات [2] .

أما السيد محمد رشيد رضا فانه بعد أن أورد القول الأول وعزاه إلى بعض علماء الكلام قال : وهذا ترتيب معقول لو ساعد عليه تاريخ النزول [3] ، وقال : انني أجزم هنا – بعد التأمل في جميع آيات التحدي وتاريخ نزول سورها – أنها لم يكن مراعى بها الترتيب

1 – روح المعاني السابق .
2 – روح المعاني جـ 12 ص 21 .
3 – تفسير المنار جـ 1 ص 161 ، وج12 ص29 .

التاريخي في مخاطبة المشركين ، كما زعم جمهور المفسرين [1] .

واسهب في بيان رأيه وتعليله ، وخلاصته :

ان افتراء القرآن قد يكون في جملته ، باسناده إلى الله تعالى وادعائه أنه كلامه أوحاه إليه .

وقد يكون في افتراء اخباره التي يدعي انها من الله تعالى [2] .

والتحدي بالسور العشر هو الذي يفند هاتين التهمتين الموجهتين إليه صلى الله عليه وسلم بأنهض حجة عملية لا جدلية ، وبيانه :

ان هذا التحدي بالعشر يثبت به من بطلان دعواهم ما لا يثبت بالعجز عن سورة واحدة ، ولا سيما إذا كانت قصيرة ، ولهذا حسن مجيئه بعد التحدي بسورة واحدة مطلقا ..

ذلك بأن افتراء الأخبار المدعى في القرآن - الماضية والآتية - وأخبار الغيب التي يكذبونها ، ويزعمون انها مفتراة ، هي ثلاثة :

1 - أخبار الآخرة .

2 - أخبار وعد الله لرسوله وللمؤمنين ووعيده لأعدائه في الدنيا .

وكلاهما من أنباء الغيب المستقبلة التي لا يظهر صدقها إلا بوقوع مدلولها .

3 - قصص الرسل عليهم السلام ، وهي أمور وقعت بالفعل .

وانتهى السيد رشيد رضا إلى أن آيات البعث والجزاء ، ووعد الله لرسوله وللمؤمنين بالنصر في السور العشر لا يظهر للتحدي

---

1 - تفسير المنار جـ 12 ص38 .

2 - تفسير المنار - جـ 12 ص 29 .

بعشر مفتريات منها معنى لا يوجد في السورة الواحدة [1] .

وأما قصص الرسل عليهم السلام فهي التي تظهر فيها حكمة التحدي بالسور العشر على اتمها وأكملها من الوجوه اللفظية والمعنوية المختلفة ، ويكون العجز عن معارضتها أقوى حجة وبرهانا على كونها من عند الله تعالى ، لا مفتراة من عند محمد صلى الله عليه وسلم.

وموضوعها وقائع بشرية تاريخية لها روايات متواترة في جملتها، بعضها مدون عند أهل الكتاب وغيرهم ، وبعضها محفوظ عند العرب كأخبار عاد وثمود وابراهيم وإسماعيل ، فدعوى افترائها من أصلها مكابرة ظاهرة البطلان ، والكلام فيها بغير علم عرضة لضروب من الخطأ اللفظي ، وتكراره مزلة في مداحض التعارض والاختلاف المعنوي والتفاوت والخطل البياني ، ويظهر ذلك لكل أحد منهم ، لأنه من جنس معارفهم وما يعهدونه بينهم ، لا كأمور الغيب في غير عالمهم [2] .

بيد أن التحدي بالسور التي فيها القصص انما يراد به التحدي بها كلها، لا بالقصص التي فيها دون غيرها [3] .

ويظهر أن عجز البشر عن معارضة هذه القصص في جملة سورها ، بفصاحتها وبلاغتها ، في كل أسلوب من أساليبها ، وكل

---

1 – السابق ص 30 – 32 .

2 – تفسير المنار جـ 12 ص 32 – 33 .

3 – السابق ص 34 .

نظم من أناظيمها ، لا يتحقق في سورة واحدة أو ثنتين أو ثلاث منها[1] .

وذهب سيد قطب إلى أن ترتيب نزول آيات التحدي الوارد في القول الأول ليس عليه دليل ، بل الظاهر أن سورة يونس سابقة وهود لاحقة ، وترتيب الآيات في النزول ليس من الضروري أن يتبع ترتيب السور ، فقد كانت تنزل الآية فتلحق بسورة سابقة أو لاحقة في النزول ، إلا أن هذا يحتاج إلى ما يثبته ، وليس في أسباب النزول ما يثبت أن آية يونس (فاتوا بسورة مثله) ، كانت بعد آية هود (فاتوا بعشر سور مثله) ، والترتيب التحكمي في مثل هذا لا يجوز [2] .

وعرض لرأي السيد رشيد رضا ، وعقب عليه بقوله :

ونحسب والله أعلم أن المسألة أيسر من كل هذا التعقيد ، وان التحدي كان يلاحظ حالة القائلين وظروف القول ، لأن القرآن كان يواجه حالات واقعة محددة مواجهة واقعة محددة ، فيقول مرة : ائتوا بمثل هذا القرآن ، أو ائتوا بسورة ، أو بعشر سور ، دون ترتيب زمني ، لأن الغرض كان هو التحدي في ذاته بالنسبة لأي شيء من هذا القرآن كله أو بعضه أو سورة منه على السواء . فالتحدي كان بنوع هذا القرآن لا بمقداره ، والعجز كان عن النوع لا عن المقدار .

وعندئذ يستوي الكل والبعض والسورة ، ولا يلزم ترتيب ، انما هو مقتضى الحالة التي يكون عليها المخاطبون ، ونوع ما يقولون عن هذا القرآن في هذه الحالة ، فهو الذي يجعل من المناسب أن يقال

---

1 - السابق ص 35 .

2 - في ظلال القرآن جـ 4 ص 523 .

سورة أو عشر سور أو هذا القرآن ، ونحن اليوم لا نملك تحديد الملابسات التي لم يذكرها لنا القرآن. [1]

التحدي قائم على مدى الزمان :

اختلفوا في التحدي هل يختص بعصر الرسالة أو يمتد على مر الدهور ، على قولين :

القول الأول : العرب في عصر الرسالة هم المخصوصون بالتحدي دون غيرهم .

وهو قول ورد في كلام الباقلاني [2] وسيأتي ، ورجحته الدكتورة بنت الشاطيء [3] .

بحجة :أنهم أصحاب اللسان العربي الذين يدركون أسرار بيانه، فهم موضع التحدي .

القول الثاني : التحدي قائم في كل زمان .

وهو قول السيد أحمد صقر [4] وسيد قطب [5] والدكتور محمد عبد الله دراز [6] ومغنية [7] ، وهو الذي تفيده عبارات الباقلاني كما

---

1 - السابق ص 523 - 524 .
2 - إعجازالقرآن للباقلاني ص 8 .
3 - الإعجاز البياني للقرآن - د . عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ ص 75 .
4 - إعجاز القرآن للباقلاني - هامش ص 8 .
5 - في ظلال القرآن جـ 1 ص 54 و جـ 7 ص 605 .
6 - النبأ العظيم - د . محمد عبد الله دراز ص 85 .
7 - التفسير الكاشف - محمد جواد مغنية جـ 1 ص 66 .

أرى ، فهو حين رد على من زعم : (أنه وان كان قد عجز عنه أهل العصر الأول فليس أهل هذا العصر بعاجزين عنه) ، قال : (ويكفي عجز أهل العصر الأول في الدلالة – أي : دلالة القرآن هي عن معجزة عامة – لأنهم خصوا بالتحدي دون غيرهم) [1] . فهو يريد أن يقول : إن عجز أهل العصر الأول حينما تحداهم القرآن ، وهو بلسانهم ، دليل على عجز أهل هذا العصر ، ولا يلزم منه نفي قيام التحدي كل زمان . وذلك لأنه يقول: (إنا إذا علمنا أن أهل ذلك العصر كانوا عاجزين عن الإتيان بمثله، فمن بعدهم أعجز ، لأن فصاحة أولئك في وجوه ما كانوا يتفننون فيه من القول ، مما لا يزيد عليه فصاحة من بعدهم ، وأحسن أحوالهم أن يقاربوهم أو يساووهم، فأما أن يتقدموهم أو يسبقوهم فلا...، وأنا قد علمنا عجز سائر أهل الأعصار كعلمنا بعجز أهل العصر الأول ، والطريق في العلم بكل واحد من الأمرين طريق واحد ، لأن التحدي في الكل على جهة واحدة ، والتنافس في الطباع على حد واحد ، والتكليف على منهاج لا يختلف ، ولذلك قال الله تبارك وتعالى: (قل لئن اجتمعت الإنس والجن ...) الآية– الإسراء 88 [2].

فقوله (فمن بعدهم أعجز) يفيد أن التحدي يتوجه إليهم ، كما توجه إلى أهل العصر الأول ، ولذلك ثبت عجزهم .

فالباقلاني يقرر : أن القرآن تحداهم ، لأن فصاحتهم قد بلغت مداها ، وأن العلم بعجز سائر أهل الأعصار هو كالعلم بعجز أهل

---

1 – إعجاز القرآن للباقلاني السابق .
2 – إعجاز القرآن للباقلاني ص 250 .

العصر الأول ، والتحدي في الكل على جهة واحدة .

ومن هذه الأقوال يتضح : أنه ليس هناك من اضطراب في كلام الباقلاني ، كما لا حاجة إلى التفريق بين الاعجاز والتحدي ، بأن الاعجاز قائم في كل زمان ، أما التحدي فمخصوص بأهل العصر الأول[1] .

ومثل كلام الباقلاني ما ورد في الرسالة الشافية لعبد القاهر الجرجاني ، حيث يقول : (إن الأصل والقدوة فيه العرب ، ومن عداهم تبع لهم وقاصر فيه عنهم ، وانه لا يجوز أن يدعي للمتأخرين من الخطباء والبلغاء عن زمان النبي صلى الله عليه وسلم الذي نزل فيه الوحي ، وكان فيه التحدي أنهم زادوا على أولئك الأولين ، أو كملوا في علم البلاغة أو تعاطيها لما لم يكملوا له...) [2] .

فقوله: (من عداهم – وهم عرب هذه العصور والأعاجم – تبع لهم) يفيد توجه التحدي إليهم ، فلم يستطيعوا لأنهم غير أهل له .

والذي أرجحه هو القول ببقاء التحدي قائما ، وأنه غير مقصور على عصر القرآن ، لما يأتي :

1 – حين مضى عصر القرآن ، جاء العصر الذي بعده ، وفي البادية أقوام لم تختلط أنسابهم ، ولم تنحرف ألسنتهم ، ولم تتغير سليقتهم . ثم ورث هذه اللغة عن أهلها الوارثون الضابطون .[3]

---

1 – القول بالاضطراب والتفريق المذكورين في الإعجاز البياني ص 74 و 76 .

2 – الرسالة الشافية لعبد القاهر الجرجاني ص 117 .

3 – النبأ العظيم ص 85 .

وأهل تلك العصور لم يفترقوا عن أهل العصر الأول من حيث القدرة ، فنكوصهم عن معارضته كنكوص أهل العصر الأول ، فمحل التحدي في العصرين واحد .

2 – التحدي شرط من شروط الإعجاز كما تقدم ، ولما (كان الاعجاز قائما في كل عصر ، لا يختص به أهل زمان دون زمان[1]، فالتحدي قائم على أهل العصر الأول ومن بعده معا .

3 – ان آيات التحدي وإن كانت موجهة لأهل العصر الأول ، فهي عامة غير مخصوصة بأحد أو بزمن ، (وان كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا ...) ، لأن خطاب الله تعالى للرسول صلى الله عليه وسلم هو خطاب لامته (قل فاتوا بكتاب ...) وغيرها ، على ما هو معلوم .

والخطب في هذا الاختلاف يسير ،

فهذان القولان ، وإن كانا مختلفين في الظاهر ، فالنتيجة واحدة، لأن التحدي للعرب في عصر الرسالة هو تحد لأهل العصور المتأخرة جميعا ، وإذا عجز الأوائل – وهم أهل الفصاحة والبيان – فمن باب أولى أن يعجز الأواخر ممن بقي معه اللسان العربي الصافي أو اختلطت به العجمة .

علم الاعجمي بإعجاز القرآن :

والأعاجم وان لم يكن لهم علم بفصاحة العرب ، يمكنهم أن

---

1 – العبارة بين القوسين في : الإعجاز البياني لبنت الشاطئ، ص 74 .

يعرفوا اعجاز القرآن بمعرفتهم عجز العرب عن معارضته ،

قال الباقلاني : (لا يتهيأ لمن كان لسانه غير العربية من العجم والترك وغيرهم أن يعرفوا اعجاز القرآن إلا بأن يعلموا أن العرب قد عجزوا عن ذلك ، فإذا عرفوا هذا – بأن علموا أنهم قد تحدوا إلى أن يأتوا بمثله ، وقرعوا على ترك الاتيان بمثله ، ولم يأتوا به – تبينوا انهم عاجزون عنه ، وإذا عجز أهل ذلك اللسان فهم عنه أعجز) [1]

وقال أيضا : (فان قيل كيف تلزم حجة القرآن غير العرب؟ قيل : من حيث انهم إذا بحثوا وعلموا أن العرب أهل اللسان والفصاحة عجزوا عن سورة منه ، كما يعلم من ليس بساحر عجز السحرة عن آية موسى، ومن ليس بطبيب عجز الأطباء عن آية عيسى ، فهذا طريق علمهم)[2].

فالعجم يعرفون في الجملة حال القرآن وما يختص به من المزية بعجز العرب عن معارضته مع توفر الدواعي ، يبينه : انه لو علموا في بعض الأنبياء أنه حمل جسما ثقيلا ، وتعذر على غيره ، لعلموا أنه معجز ، وان لم يعلم تفصيله ، فكذلك يعلمون أنه أتى بكلام مخصوص من جنس كلامهم ، وتعذر عليهم ، وهذا القدر يكفيهم ، وذلك يتم لهم ، وان لم يعرفوا التفاصيل .

وهذا أحد وجهين استظهره القاضي عبد الجبار ، وحكاه عن

---

1 – إعجاز القرآن للباقلاني ص 113 – وانظر نحوه في ص 25 و252 والتمهيد للباقلاني ص 127 .

2 – نكت الانتصار لنقل القرآن للباقلاني ص 248 ، وانظر نحوه في التمهيد للباقلاني ص 127 .

شيخه ابي هاشم .

وحكى القاضي الوجه الآخر عن شيخه ابي هاشم ، وهو أنه يعرف بالخبر أن من تقدم من الفصحاء كان عالما بمزية القرآن ، وانه كان يخبر بذلك ، وهذا القدر يكفي في الدلالة ، لأنه إذا علم من حالهم ما وصفنا علم أن للقرآن مزية ، لأنه لو لم يكن كذلك لم يحصل لمن تقدم هذا العلم الذي عنده ، تعذرت المعارضة [1] .

انعدام المعارضة بعد التحدي

دل النقل المتواتر الذي يقع به العلم الضروري على أن الرسول صلى الله عليه وسلم تحداهم بالقرآن ، وأنهم لم يأتوا له بمثل ، فلا يمكن جحود واحد من هذين الأمرين [2] .

والذي يدل على أنهم كانوا عاجزين عن الاتيان بمثل القرآن ، انه تحداهم اليه حتى طال التحدي ، وجعله دلالة على صدقه ونبوته... فلو كانوا يقدرون على تكذيبه لفعلوا .... ومعلوم أنهم لو عارضوه بما تحداهم إليه لكان فيه توهين أمره ، وتكذيب قوله ، وتفريق جمعه ... وكان من صدق به يرجع على اعقابه ، فلما لم يفعلوا شيئا من ذلك مع طول المدة ووقوع الفسحة ، وكان أمره يعلو شيئا فشيئا ، وهم على عجزهم ، علم أنهم لا يقدرون على معارضته

وقد علم منهم أنهم ناصبوه الحرب ، وقطعوا الأرحام ، واخطروا بأنفسهم ، وطالبوه بالآيات والإتيان بالملائكة وغير ذلك من

---

1 - المغني للقاضي عبد الجبار جـ 16 ص 295 .

2 - إعجاز القرآن للباقلاني ص 18 .

المعجزات ، يريدون تعجيزه ، ليظهروا عليه بأي وجه ، فكيف يجوز أن يقدروا على المعارضة القريبة السهلة عليهم ، وفيها كفاية لدحض حجته وإبطال أمره، فيعدلون عن ذلك إلى سائر ما صاروا إليه . وهذا مما يمتنع وقوعه في العادات ، ولا يجوز اتفاقه من العقلاء [1]

فلو كانت المعارضة واقعة لنقلت ، ولو نقلت لوقع العلم ، فلما لم يقع العلم بها علمنا أنها لم تنقل ، وإذا ثبت أنها لم تنقل ثبت أنها لم تكن [2] ، لأنا نعلم أنه ليس بين بغداد وحلوان مدينة مثل بغداد ، لأنه لو كان لظهر الخبر كظهور بغداد ، لأن الداعي إلى الخبر عنهما يتفق.

ولو كان بعده صلى الله عليه وسلم أو في آية من يدعي النبوة ممن ظهر حاله ، لوجب نقل خبره .

وعليه : فلو كان من تحداهم صلى الله عليه وسلم بمثل القرآن أتوا بالمعارضة لوجب أن ينقل على وجه يظهر كظهور نقلهم للقرآن وتحديه به صلى الله عليه وسلم ، ولكان من يعادي وينافس يديم نقله وحفظه كالقرآن ، وكان يجب أن يكون ظاهرا . وبطلان ذلك يبين أن القوم لم يعارضوا القرآن ، وأنهم سلموا له الأمر .

ولولا صحة ذلك لم نعلم تقدم العلماء والشعراء في الأزمنة المتقادمة ، بل نجوز في أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من لم ينقل خبره ..إلخ [3] .

---

1 – إعجاز القرآن السابق ص 20 – 22 .

2 – إثبات نبوة النبي صلى الله عليه وسلم ص 33 .

3 – المغني للقاضي عبد الجبار جـ 16 ص 250 .

لذلك قال شيوخ القاضي عبد الجبار : لو كان القوم أتوا بالمعارضة لكان حالها كحال القرآن فيما يقتضي وجوب نقلها ، لأن قرب العهد واحد ، والحاجة والدواعي فيهما تتفق ، فكان يجب أن ينقلا على حد واحد ، فإذا لم يحصل نقل المعارضة علمنا أنه لا أصل لها (1) .

وكان يجب في المعارضة كما تظهر أن تنقل ، وأن لا يختل نقلها ، لأن الحاجة فيما يرجع إلى الدين تقتضي قوة النقل ، فما هو حجة أولى من نقل الشبهة ، ولو صحت المعارضة لكانت كالحجة ، وكان القرآن كالشبهة ، لأن بالمعارضة تعلم من حاله أنه ليس بمعجز ، وتكون المعارضة – من حيث كشفت ذلك من حال القرآن ، ودلت عليه – حجة ، فكان يجب أن تكون بالنقل أولى من القرآن ... فكيف يصح والحال هذه أن ينقل القرآن ولا تنقل المعارضة ؟ (2)

ثم إنه نقل الهجو والوقيعة ونسبته صلى الله عليه وسلم إلى السحر وغير ذلك ، فكيف يجوز أن لا تنقل المعارضة مع ما فيها من الفوائد ، لو كانت قد وقعت ؟ (3) .

ثم إنه نقل انهم تعاطوا في محاربته ، مع ما فيها من بذل المهج والأموال ، والإقدام على ما يتضمن الأخطار ، ماتكلفوه ، فلو كانت المعارضة وقعت لكان إظهارها والاحتجاج بها أدل على فساد حاله ، وأقرب إلى بلوغ مرادهم منه ، فكيف يجوز نقل مالا يؤثر ،

---

1 – المغني السابق ص 252 .
2 – المغني السابق ص 253 .
3 – المغني السابق ص 254 .

وترك نقل مايؤثر؟ (1) .

فلا يقال : إن المعارضة قد وقعت ولم تنقل ، لأن ذلك يفضي إلى القول بأنه كان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قرآن آخر أعظم حالا من هذا القرآن ، حتى صار لعظم حاله بحيث لا يشك أحد من الفصحاء أنه مما لا تمكن فيه معارضة ومساواة ، ولم ينقل ، وإن كان قد نقل هذا القرآن ، بل كان يجب أن يجوز في زمانه من ادعى النبوة ، وظهرت عليه المعجزات الباهرة ، ونسخ شريعته ، ودل على بطلان أمره ، ولم ينقل شيء من أمره (2) .

ولا يصح أن يقال بجواز وقوع معارضتهم ، لكنه لم ينقل لعلة من العلل .

لأن العلل التي تمنع من نقل الأمور الظاهرة التي قد علم من حال مايقاربها وجوب النقل لا بد من أن تكون ظاهرة كالتواطؤ في الأخبار والتخويف إلى ما شاكله .

وكل ذلك لايتأتى في نقل المعارضة (3)

كما لا يصح أن يقال بجواز وقوع معارضتهم ، إلا أن خوف السيف منع إظهار المعارضة .

وذلك : لأن الأمر لوكان كذلك لجاز نقله وذكره وذكر المعارض والمتولي له ، ولوجب بمستقر العادة أن يغلب إظهاره على كتمانه ،

---

1 - المغني السابق ص 255 .

2 - المغني السابق ص 254 .

3 - المغني السابق ص 258 - 259 .

حتى يكون العلم به كالعلم بالقرآن ، إذ لابد من تحدثهم بينهم إذا خلوا وجالسوا من يأمنون سيفه ، كتحدث الناس بعيوب سلطانهم وجبابرتهم ، وإن لم ينقل ذلك نقلا ظاهرا . وأيضا لو كان الخوف من السيف مانعا من نقلهم المعارضة لمنع ذلك أيضا من دعوى المعارضة[1] . والخوف إنما يقتضي ترك الإظهار لا ترك النقل ، وربما دعا المنع إلى الإكثار من النقل ، والمعروف أن ما يقع منع السلطان فيه يكون أقرب إلى الانتشار ، حيث تقوى الدواعي ، وتزداد بحصول المنع ، وقد كان يجب في المعارضة لو وقعت أن تظهر حالها في من يعاديه صلى الله عليه وسلم ، وهم كثرة عظيمة ، فكيف يقال : إن الخوف قد منع من ظهورها ؟

ثم إنه نقلت المعارضة الركيكة ولم تمنع المخافة منها ، فكيف تمنع من المعارضة الصحيحة ؟ وقد نقل هجوهم وتكذيبهم وغيره ، فما المانع من نقل المعارضة ؟

ثم إن المعارضة لو صحت لقويت أحوال الكفار بها وظهرت ، فتكون سببا للقوة وزوال الخوف من مستجيبيه الذين وهنت حالهم ، وسببا في التخلص من الشريعة وإبطال أمره صلى الله عليه وسلم[2]، وهذا غاية مايصبو إليه الكفار .

ولا يقال : شغلهم القتال عن معارضته ، لأن معارضته أسهل عليهم من القتال وأيسر ، ولأن القتال لم يقطعهم عن التكلم بين

---

1 – التمهيد للباقلاني ص 122 وانظر نحوه في:بيان إعجاز القرآن للخطابي ص55 والرسالة الشافية للجرجاني ص 137 و نكت الانتصار ص 246 .
2 – المغني للقاضي عبد الجبار جـ 16 ص 259 – 260 .

الصفين والرجز في الحرب [1] .

أما القول بأنه إن لم يعارض إلى الآن فمن الممكن أن يعارض في مستأنف الزمان ، فيجاب عليه :

بأنه لا احتياج إلى المعارضة أشد مما في وقت التحدي ، وحيث لم تقع المعارضة وقتئذ علم أن لا معارضة [2] ، وحصل الجزم أنها لا تقع أبدا بقوله تعالى : (ولن تفعلوا) [3] .

ودليل عدم وقوع معارضة القرآن هوقوله تعالى : (فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقواالنار) الآية .

فقوله (فإن لم تفعلوا) أي : فإن لم تأتوا بسورة من مثله ، وقد تظاهرتم أنتم وشركاؤكم عليه وأعوانكم ، فتبين لكم بامتحانكم واختبار عجزكم وعجز جميع خلقي عنه ، وعلمتم أنه من عندي ، ثم أقمتم على التكذيب به [4] ، وذلك فيما مضى [5]من الزمان .

(ولن تفعلوا) أي : ولن تأتوا بسورة من مثله أبدا [6] ولن

---

1 - نكت الانتصار ص 246 .

2 - تفسير النيسابوري جـ 1 ص 201 .

3 - المصدر السابق جـ 1 ص 208 .

4 - تفسير الطبري جـ 1 ص 168 .

5 - فتح القدير للشوكاني جـ 1 ص 52 .

6 - تفسير الطبري السابق ، ومثله في تفسير الطبرسي جـ 1 ص 63 .

تطبقوا ذلك فيما يأتي من الزمن ، وتبين لكم عجزكم عن المعارضة[1]، إثارة لهممهم ، ليكون عجزهم بعد ذلك أبلغ وأبدع [2] .

وفيه تقوية الدليل وتقرير عجزهم بمايثير حميتهم ، ويغريهم بتكلف المعارضة ، ولا يمكن أن يصدر مثل هذا النفي الاستقبالي المؤكد أو المؤبد [3] من عاقل كالنبي صلى الله عليه وسلم في أمر ممكن عقلا ، لولا أن أنطقه الله الذي خصه بالوحي ، وهو الذي يعلم غيب السماوات والأرض ، بأنه غير ممكن لأحد [4] .

وفيه : الإخبار بالغيب من أنهم لا لن يفعلوا ، وهذا لا يعلمه إلا الله تعالى ، ويدل على ذلك : أنهم لو عارضوه بشيء لم يمتنع أن يتواصفه الناس ويتناقلوه ، إذ خفاء مثله فيما عليه مبنى العادة محال، لاسيما والطاعنون فيه أكثف عددا من الذابين عنه ، فحين لم

---

1 - فتح القدير السابق .

2 - البحر المحيط جـ 1 ص 106 .

3 - للمفسرين في (لن) قولان :

أ - تفيد نفي المستقبل ، وفيها توكيد وتشديد / الكشاف ج 1 ص 192 وتفسير ابي السعود ج 1 ص 67 وفتح القدير للشوكاني ج 1 ص 53 وروح المعاني ج 1 ص 198.

ب - تفيد النفي على التأبيد في المستقبل : أي ولن تفعلوا ذلك أبدا ./ تفسير ابن كثير ج1 ص60 وتفسير الطبرسي ج1 ص 63 وتفسير الرازي ج1 ص121 . ورده الألوسي في روح المعاني - الموضع السابق .

4 - تفسير المنار جـ 1 ص 162 .

ينقل علم أنه إخبار بالغيب على ماهو به ، فكان معجزة [1] .

فالله تعالى أخبر خبرا جازما قاطعا أن هذا القرآن لا يعارض بمثله أبد الآبدين...

وكذلك وقع الأمر فلم يعارض إلى زماننا هذا ، ولا يمكن ، وأنى يتأتى ذلك لأحد ، والقرآن كلام الله خالق كل شيء ، وكيف يشبه كلام الخالق كلام المخلوقين [2] ؟

المعارضة المنقولة :

نقل عن مسيلمة الكذاب ما زعم أنه قرآن ، مثل قوله : (والليل الأطخم ، والذئب الأدلم ، والجذع الأزلم ، ما انتهكت اسيد من محرم)، قاله في خلاف وقع بين قوم أتوه من أصحابه .

وقوله (والليل الدامس ، والذئب الهامس ، ماقطعت أسيد من رطب ولا يابس) .

وقوله : (ضفدع بنت ضفدعين ، نقي ماتنقين ، أعلاك في الماء واسفلك في الطين ، لا الشارب تمنعين ، ولا الماء تكدرين ، لنا نصف الأرض ولقريش نصفها ، ولكن قريشا قوم يعتدون) .

وقوله : (والمبديات زرعا ، والحاصدات حصدا ، والذاريات قمحا، والطاحنات طحنا ، والخابزات خبزا ، والثاردات ثردا ، واللاقمات لقما ، إهالة وسمنا ، لقد فضلتم على أهل الوبر ، وماسبقكم أهل المدر ، ريفكم فامنعوه ، والمعتر فآووه ، والباغي

---

1 - تفسير الكشاف جـ 1 ص 192 ، ونحو في تفسير ابي السعود جـ 1 ص 67

2 - تفسير ابن كثير جـ 1 ص 60 .

فناوئوه)[1] .

وقوله : (الفيل وما الفيل ، وما أدراك ما الفيل ، له مشفر طويل، وذنب أثيل ، وما ذاك من خلق ربنا بقليل) [2] .

هذا الكلام ونحوه لم يقصد به المعارضة ، وإنما ادعى أنه نزل عليه وحي بذلك [3] ، وهو كما قال أبو حيان :

أتى باللفظ الغث ، والمعنى السخيف ، واللغة المهجنة ، والأسلوب الرذل ، والفقرة غير المتمكنة ، والمطلع المستقبح ، والمقطع المستوهن ، بحيث لو قرن ذلك بكلامهم في غير ما ادعوا أنه وحي كان بينهما من التفاوت في الفصاحة والتباين في البلاغة مالايخفى عمن له يسير تمييز في ذلك ، فكيف الجهابذة النقاد والبلغاء الفصحاء ؟ فسلبهم الله فصاحتهم بادعائهم وافترائهم على الله الكذب[4] .

وهو كلام تضحك منه الثكلى [5] ، ولا يخفى على من له أدنى

1 – إعجاز القرآن للباقلاني ص 156 وفيه كلمات أخرى له ، وانظر : بيان إعجاز القرآن للخطابي ص 55 ونكت الانتصار ص 247 .

2 – بيان إعجاز القرآن للخطابي السابق .

3 – البحر المحيط جـ 1 ص 106 وإثبات نبوة النبي صلى الله عليه وسلم ص 39 وروح المعاني جـ 1 ص 198 .

4 – البحر المحيط السابق

5 –روح المعاني السابق .

مسكة من عقل سخفه وركاكته وضعف عقل قائله [1] ، وهو خال من كل فائدة ، لا لفظه صحيح ، ولا معناه مستقيم ، ولا فيه شيء من الشرائط التي هي أركان البلاغة [2] .

وحين طرق سمع أبي بكر رضي الله عنه قال : (سبحان الله، ويحكم ، إن هذا الكلام لم يخرج عن إل) ، أي : عن ربوبية [3] .

ثم انه خال من أوصاف المعارضات وشروطها . وانما هو استراق واقتطاع من عرض كلام القرآن ، واحتذاء لبعض أمثلة نظومه .

وسبيل من عارض صاحبه في خطبة أو شعر أن ينشيء له كلاما جديدا ، ويحدث له معنى بديعا ، فيجاريه في لفظه ، ويباريه في معناه، ليوازن بين الكلامين ، فيحكم بالفلج لمن أربى منهما على صاحبه، وليس بأن يتحيف من أطراف كلام خصمه ، فينسف منه ، ثم يبدل كلمة مكان كلمة ، فيصل بعضه ببعض وصل ترقيع وتلفيق ، ثم يزعم أنه قد واقفه موقف المعارضين [4] .

ثم ان مسيلمة لم يرد ان يعارض القرآن من ناحية البلاغة ، لأنه يسعى إلى الملك ، واتخذ النبوة سببا إليه ، وحسب ان النبوة ضرب من الكهانة ، ولما كان الكهان يسجعون ، ويسمع العرب لهم

---

1 - نكت الانتصار ص 247 وانظر التمهيد ص 128 .

2 - بيان إعجاز القرآن للخطابي ص 55 .

3 - إعجاز القرآن للباقلاني ص 158 .

4 - بيان إعجاز القرآن للخطابي ص 58 .

ويطيعوهم ، جعل السجع كلامه ، ليستدرجهم إلى ما يريد [1] .

ولم يفلح في هذا السبيل ، فلم يكن في تعاطيه الكهانة حاذقا ، ولا في دعواه النبوة صادقا ، وانما كان اتباعهم له عصبية ، حتى قيل : (كذاب ربيعة أحب إلينا من صادق مضر) [2] .

وقيل : إن ابن المقفع عارض القرآن ، وزعموا : أن كتابيه (الدرة)، و(التليمية) كانا في معارضته .

(والدرة اليتيمة) كتاب يتضمن حكما منسوخة من كتاب بزرجمهر في الحكمة ، فليست له فضيلة حازها فيما جاء به .

والآخر في شيء من الديانات ، وقد تهوس فيه بما لا يخفى على متأمل .

يقول الباقلاني : ليس يوجد له كتاب يدعي مدع أنه عارض فيه القرآن ، بل يزعمون أنه اشتغل بذلك مدة ، ثم مزق ما جمع ، واستحيا لنفسه من إظهاره [3] .

وقطع الرافعي بكذب الرواية ، لأن ابن المقفع من أبصر الناس باستحالة المعارضة ، وإنما نسبت المعارضة لابن المقفع دون غيره ،

---

1 – إعجاز القرآن للرافعي ص 197 ، وقال الخطابي في بيان إعجاز القرآن ص 56 : (إنما تكلف هذا الكلام الغث ، لأجل ما فيه من السجع ، والساجع عادته أن يجعل المعاني تابعة لسجعه ، ولا يبالي بما يتكلم به إذا استوت أساجيعه واطردت).

2 – النبأ العظيم – هامش ص 83 .

3 – إعجاز القرآن للباقلاني ص 32 ، وإعجاز القرآن للرافعي ص 202 واثبات نبوة النبي صلى الله عليه وسلم ص 40 .

لأن فتنة الفرق الملحدة إنما كانت بعده ، ثم إن ابن المقفع متهم في دينه عند الناس ، فدفع بعض ذلك إلى بعض ، وتهيأت النسبة إليه ، لأنه بليغ يصلح دليلا للزنادقة والملحدين [1] .

وعزي من المعارضة إلى الشاعر المتنبي والمعري ، والظن بهؤلاء أنهم كانوا في غنى بعقولهم وأذواقهم عن الشروع في هذه المحاولة ، فمزقوا صحائفهم [2] .

ومن زعم المعارضة افتضح أمره ، وباء بالفشل والخذلان [3] .

تعذر المعارضة هو سبب إعراضهم عنها :

أعرض العرب عن معارضة القرآن الكريم بسبب تعذرها عليهم فالنبي صلى الله عليه وسلم تحدى العرب قاطبة بأن يأتوا بسورة من مثله فعجزوا عنه ، وبقي يطالبهم عشرين سنة ، مظهرا لهم النكير ، مسفها آراءهم ، حتى نابذوه وحاربوه ، فهلكت فيه النفوس ، وقطعت الأرحام ، وذهبت الأموال ، وهذه الثلاثة أعز الأشياء على الإنسان .

ولو كان ذلك في مقدورهم لم يتكلفوا هذه الأمور الخطيرة ، ويتركوا السهل من القول إلى الوعر من الفعل ، هذا لا يفعله عاقل .

وقريش موصوفون برزانة الأحلام ، وفيهم الخطباء المصاقع والشعراء المفلقون ، وقد وصفهم عز وجل بالجدل فقال سبحانه :

---

1 - إعجاز القرآن للرافعي السابق .

2 - النبأ العظيم - هامش ص 82 .

3 - انظر الكلام على هؤلاء في إعجاز القرآن للرافعي السابق .

(ماضربوه لك إلا جدلا بل هم قوم خصمون) – الزخرف 58 ، فكيف يجوز أن يغفل العرب عن ذلك ، مع شدة حاجتهم ، ولا يحوزوا الظفر فيه ، لولا عدم القدرة عليه والعجز المانع منه ؟

ومعلوم أن رجلا عاقلا لو عطش عطشا شديدا خاف على نفسه الهلاك منه ، وبحضرته ماء معرض للشرب ، فلم يشر به حتى هلك عطشا ، لحكمنا أنه عاجز عن شربه غير قادر عليه ، وهذا واضح لا يشكل على عاقل [1].

والحمد لله رب العالمين أولا وآخرا

---

1 – بيان إعجاز القرآن للخطابي ص 21 – 22 .

وانظر نحوه في التمهيد للباقلاني ص 120 والنكت للرماني ص 109 ، وإثبات نبوة النبي صلى الله عليه وسلم ص 50 .

مصادر البحث

* الاتقان في علوم القرآن – جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي المتوفى سنة 911 هـ . تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم – مطبعة المشهد الحسيني بمصر .

* اثبات نبوة النبي صلى الله عليه وسلم – أحمد بن الحسين الهاروني ، المكتبة العلمية ببيروت .

* أصول الدين الإسلامي – د. قحطان عبد الرحمن الدوري و د. رشدي عليان – الطبعة الثالثة – مطبعة الارشاد – بغداد 1986 م

* الاعجاز البياني – د. عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ – الطبعة الثانية – دار المعارف بمصر .

* اعجاز القرآن – أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني المتوفى سنة 403هـ ، تحقيق السيد أحمد صقر – الطبعة الثالثة – دار المعارف بمصر سنة 1971 م .

* اعجاز القرآن والبلاغة النبوية – مصطفى صادق الرافعي القاهرة

* البحر المحيط – ابن حيان محمد بن يوسف الأندلسي المتوفى سنة 754 هـ . الناشر : مكتبة ومطابع النصر الحديثة – الرياض ، وهي طبعة مصورة ببيروت .

* البرهان في علوم القرآن – بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي المتوفى سنة 794 هـ ، تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم – مطبعة عيسى البابي الحلبي بمصر – الطبعة الثانية .

* بيان اعجاز القرآن للخطابي – انظر ثلاث رسائل في اعجاز القرآن.

* تفسير البيضاوي (انوار التنزيل واسرار التأويل) – عبد الله بن عمر البيضاوي الشيرازي ، المتوفى سنة 685 هـ .

وبهامشه : حاشية ابي الفضل الكازروني الصديقي المتوفى بحدود سنة 940 هـ ، دار الجيل ببيروت – طبعة مصورة .

* تفسير التحرير والتنوير – محمد الطاهر بن عاشور – الدار التونسية للنشر – تونس 1984 م .

* تفسير الثعالبي (الجواهر الحسان في تفسير القرآن) – عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي المتوفى سنة 876 هـ ، الطبعة المصورة ببيروت على المطبوعة بالمطبعة الثعالبية بالجزائر .

* تفسير الرازي (التفسير الكبير) – فخر الدين محمد بن عمر الرازي المتوفى سنة 606 هـ . نشر دار الكتب العلمية بطهران – الطبعة الثانية ، وهي مصورة على المطبوعة بالمطبعة البهية المصرية .

* تفسير أبي السعود العمادي المتوفى سنة 982 هـ (ارشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم)– دار احياء التراث العربي ببيروت .

* تفسير الطبرسي (مجمع البيان في تفسير القرآن) – الفضل بن الحسن الطبرسي الطوسي ، المتوفى سنة 548 هـ – تصحيح وتعليق هاشم الرسولي والطباطبائي – من منشورات شركة المعارف الإسلامية بايران سنة 1379 هـ .

* تفسير الطبري (جامع البيان عن تأويل آي القرآن) – أبو

جعفر محمد بن جرير الطبري ت سنة 310 هـ – مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر – الطبعة الثالثة سنة 1968 م

* تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن) – محمد بن أحمد الانصاري القرطبي ، المتوفى سنة 671 هـ – دار الشعب بالقاهرة ، وهي مصورة على طبعة دار الكتب المصرية .

* التفسير الكاشف – محمد جواد مغنية – دار العلم للملايين ببيروت – الطبعة الثانية

* تفسير ابن كثير (تفسير القرآن العظيم) – ابو الفداء اسماعيل بن عمر بن كثير القرشي المتوفى سنة 774 هـ – دار احياء الكتب العربية – عيسى البابي الحلبي بمصر .

* تفسير المنار (تفسير القرآن الحكيم) – السيد محمد رشيد رضا المتوفى سنة 1935 م . مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب – 1972 – 1979

* تفسير النيسابوري – طبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر

* التمهيد في الرد على الملحدة المعطلة والرافضة والخوارج والمعتزلة – ابو بكر محمد بن الطيب الباقلاني ، المتوفى سنة 403 هـ تحقيق الخضيري وابي ريدة . مطبعة لجنة التأليف بالقاهرة سنة 1947 م .

* ثلاث رسائل في اعجاز القرآن ، للرماني والخطابي والجرجاني .

تحقيق محمد خلف الله و د. محمد زغلول سلام – دار المعارف بمصر – الطبعة الثانية سنة 1968 م .

* الدر المنثور في التفسير بالمأثور – جلال الدين عبد الرحمن

السيوطي المتوفى سنة 911 هـ - نشر محمد أمين دمج - بيروت ، وهي مصورة على المطبوعة سنة 1314 هـ بالطبعة الميمنية بالقاهرة

* الرسالة الشافية لعبد القاهر الجرجاني - انظر ثلاث رسائل في اعجاز القرآن .

* روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني - أبو الثناء شهاب الدين محمود بن عبد الله الآلوسي البغدادي المتوفى سنة 1270 هـ . نشر دار احياء التراث العربي ببيروت ، وهي مصورة على الطبعة الثانية المنيرية المصرية .

* شرح الدواني الصديقي جلال الدين محمد بن أسعد المتوفى سنة 918 هـ على العقائد العضدية لعضد الدين عبد الرحمن بن أحمد الإيجي المتوفى سنة 756 هـ - در سعادت مطبعة عثمانية 1316 هـ .

* شرح مقاصد الطالبين في علم أصول عقائد الدين ، المقاصد وشرحه كلاهما لسعد الدين مسعود بن عمر التفتازاني المتوفى سنة 791هـ - مطبعة الحاج محرم افندي البسنوي - استانبول سنة 1305 هـ .

* شرح المواقف - السيد الشريف علي بن محمد الجرجاني ، المتوفى سنة 816 هـ . والمواقف لعضد الدين عبد الرحمن بن أحمد الإيجي ، المتوفى سنة 756 هـ - طبع بالقسطنطينية سنة 1286 هـ

* العقائد العضدية - انظر شرح الدواني .

* علم أصول الفقه - عبد الوهاب خلاف ، المتوفى سنة 1956م - الطبعة السابعة بمطبعة النصر بالقاهرة سنة 1956 م

* فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير

– محمد بن علي الشوكاني ت سنة 1250 هـ – نشر محفوظ العسلي ببيروت .

* الفتوحات الالهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية – سليمان بن عمر العجيلي المعروف بالجمل المتوفى سنة 1204 هـ – مطبعة مصطفى محمد بمصر .

* في ظلال القرآن – سيد قطب المتوفى سنة 1967 م – دار احياء التراث العربي ، بيروت – الطبعة الخامسة سنة 1967 م

* الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل – جار الله محمود بن عمر الزمخشري المتوفى سنة 538 هـ – مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر سنة 1948 م .

* لباب النقول في أسباب النزول – جلال الدين عبد الرحمن السيوطي المتوفى 911 هـ – مطبوع بهامش تفسير الجلالين – طبعة المكتبة الهاشمية بدمشق سنة 1358 هـ .

* محاضرات في أصول الفقه – بدر المتولي عبد الباسط ، بغداد – الطبعة الأولى .

* المغني في أبواب العدل والتوحيد – القاضي عبد الجبار بن أحمد الهمداني الاسدآبادي ، المتوفى سنة 415 هـ – وزارة الثقافة والارشاد القومي – القاهرة سنة 1960 م الجزء (16) .

* المقاصد – انظر شرح مقاصد الطالبين .

* المواقف – انظر شرح المواقف .

* النبأ العظيم – د. محمد عبد الله دراز – دار القلم بالكويت – الطبعة الثالثة سنة 1974 م .

* النكت للرماني – انظر : ثلاث رسائل في اعجاز القرآن .

* نكت الانتصار لنقل القرآن - أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني المتوفى سنة 403 هـ- منشأة المعارف بالاسكندرية سنة 1971م